◆ مدى الأصالة فى شعر الطبيعة بالأندلس

كان من المسلمات البَدّهية لدينا – فى عهد التلمذة بالمدرسة الثانوية ، والكلية الجامعية معًا – أن الشعر الأندلسى قد برع فى وصف الطبيعة براعة لا يقاس بها غيره ، وأن جمال الأندلس بجبالها الخضر ، وسهولها اليانعة ، وجداولها المترقرقة ، ورياضها المخضلة ، وترفها الناعم المريح ، كل ذلك قد ألهم الشعراء ما لم يلهم به بلد آخر من بلاد العربية فى المشرق ! ثم مضت بنا الأيام على هذا الاعتقاد ، ونحن نقرأ ما لدينا من شعر الطبيعة بالشام والعراق وغيرهما ، فنجده لا يقل براعة عن شعر الأندلس .. ثم نعيد الكَرَّة إلى شعر الطبيعة بالأندلس فنعجب بكثرته النسبية ، ولكننا نتساءل : أى إعجاز مكين قد ارتفع به عن شعر الشرق فى نظر الباحثين فلا نكاد نجد من القلائد المعجزة ما يطمئننا إلى ما نشأنا عليه فى أزمنة الدراسة ؟ أيكون لدى هؤلاء المؤلفين من مدرسين وجامعيين ما ليس لدينا من النصوص ؟ هل عندهم من مخطوطات الأندلس ما يملكون الفصل به فى قضية لا يتيسر لنا الحكم فيها على وجهها الصحيح ؟ .. إنهم حين يستشهدون على براعة الأندلس البارعة فى الشعر الطبيعى لا يأتون لنا بما نجهل من القصائد .

إنَّ المختارة شائعة ذائعة ، ونحن قد أطلنا الوقوف أمامها إطالة مُغرقة ، فلم ترتفع بنا عن أرض الشرق إلى سماء ذات صور وتهاويل .. أيكون الفرق بين شعر الطبيعة فى

الإقليمين ضئيلاً محدودًا كما نراه ، ويكون هؤلاء الدارسون الأفاضل قد وقعوا تحت تأثير استنتاج مخطئ أتى به باحث متقدم فتلاه اللاحقون ؟ لقد مكثنا نتردد فى الجزم بقول فَصْل ، حتى وجدنا أستاذنا الدكتور أحمد أمين ينشر بحوثه المعروفة بمجلة الثقافة (سنة ١٩٣٩) عن جناية الشعر الجاهلى على الأدب العربى ، فيتعرض لشعر الطبيعة بالأندلس كى يقول فيه :

«لقد كانت الأندلس أغنى بقاع المسلمين منظرًا ، وأوفرها جمالاً ، أبدعها الخالق أيما إبداع ، وصاغها خير صياغة ، وَلَوَّنَها أجمل الألوان ، فلا يستطيع من يراها إلا أن يغنى ، ولا من شاهدها إلا أن تفتنه ، ومن الحق أن شعراءها غنوا أكثر من غيرهم ، وتفننوا فى ذكر محاسن الطبيعة أيما تفنن ، ونبغ فيهم أمثال ابن خفاجة الملقب بشاعر الطبيعة ، ولكنى لا أكتم القارئ أنى قرأت كثيرًا من شعره ، وشعر غيره من الأندلسيين، فكان شعورى نحوهم أنهم أجادوا الصياغة ولم يوفقوا أن ينفخوا الروح ، شعرهم تمثال بديع لا حياة فيه إلا فى القليل النادر ، شعرهم من رأسهم لا من قلبهم ، أكثر جهدهم مُوَجَّه إلى البحث عن تشبيه رائع ، واستعارة بديعة تعجب علماء البيان لا نتيجة شعور يتدفق ، يريد أن يحتضن الطبيعة لجمالها ، ولا هو صرخة إعجاب خرجت من أعماق القلب فى بساطه فطرية ، ولا هو تمجيد للجمال ولا هو إحساس من الشاعر باندماج الطبيعة فى نفسه واندماج نفسه فى الطبيعة ، حتى كأنه هو وهى - أو هى وهو - وحدة لا انفصام لها ، كلا ، ولا هو شعور بحياة الطبيعة وقوة نبضها كما ينبض القلب ، ولا هو شعور الظمآن يريد أن يرتوى ولا يرويه إلا جمال الطبيعة ، ثم هو يعبُّ منه وينهل ، وكلما عَبَّ ازداد لذة وازداد ظمأ .

لا شىء من ذلك ، وإنْ عثرنا منه على شىء فهو القليل النادر الذى لا يروى ظمأ ، إنما أكثره من قبيل الخيال المصطنع ، يتعمق فيه الشاعر ليظفر باستعارة ، أو يسبح فى الآفاق ليأتى ببعض المحسنات البديعية»[1] .

صادف كلام الدكتور أحمد أمين فى حينه هَوًى لدى نفسى ، ولكنَّ نفرًا من كبار الباحثين قد تصدوا لمعارضته ، فحاولوا أن ينقضوا وجهات كثيرة من أنظاره المختلفة ،

---

(١) فيض الخاطر ج ٢ ص ٢٥٨ .

وقد تعرض الدكتوران عبد الوهاب عزام (بالثقافة) وزكى مبارك (بالرسالة) للتعقيب على آرائه فى الأدب بعامة ، ومن بينها ما يتصل بشعر الطبيعة الأندلسى ، وننقل هنا طرفًا مما قاله الدكتور زكى مبارك ، لنستطيع بعد ذلك أن ننصف شعر الطبيعة الأندلسى على ضوء الاختلاف المتباعد يمينًا وشمالاً فى الآراء .

قال الدكتور زكى مبارك :

«هل من الحق أن الأندلسيين لم يحسوا الطبيعة ولم يتذوقوها ، كما قال أحمد أمين؟ إن المعروف عند جميع أدباء اللغة العربية أن الأندلسيين تفرقوا فى وصف الطبيعة ، فكيف تفرد أحمد أمين بنكران ذلك ؟ أيكون أعلم الناس بالأدب ولا نعرف ؟ هذا والله أعجب العجب ..!! إن الأدب الأندلسى قد تعرض للضياع منذ أجيال ، فلو قلنا إن ذلك الأدب ضاع منه أكثر من تسعة أعشاره لما بعدنا عن الصواب ، ومع ذلك بقيت آثاره تشهد بأن العرب فى الأندلس أحسوا الطبيعة والوجود إحساسًا قليل النظائر والأمثال .

معاذ الأدب أن نفهم الطبيعة كما يفهمها أحمد أمين فنظنها مقصورة على الشجرة والزهرة ، إنما الطبيعة كتاب الوجود بما فيه من حَجَر ومَدَرٍ ، وشجر ونبات ، وماء وجماد ، والطبيعة الشاملة تظهر بعظموتها وجبروتها ممثلة ناطقة فى أكثر ما كَتَبَ الأندلسيون ، ولو شئت لقلت إنهم بالغوا فى ذلك حتى قاربوا الإسفاف ، فهل كانوا يعلمون من وراء الغيب أن سيجىء فى أواخر الزمان من يتهمهم بالغفلة عن تذوق الطبيعة والوجود »[1]؟ .

ثم أخذ الدكتور يستشهد بأبيات أندلسية فى الطبيعة لا نظنها بعدت عن مثل الدكتور أحمد أمين ، فهى من الذيوع والسيرورة بحيث يعرفها أكثر القراء ، ولكن اختلاف الرأى بين الباحثين الكبيرين قد نشأ من نقطة واحدة ، هى ما ينبغى أن يتسم به شعر الطبيعة فى الأدب العربى ، وبإيضاح هذه النقطة الهامة ينكشف مقطع الرأى دون نزاع .

---

(١) عن مجلة الرسالة – العدد ٣١٩ ، سنة ١٩٣٩م .

قرأ الدكتور أحمد أمين نماذج كثيرة للشعر الأوربى فى الطبيعة ، فرأى أن أكثر المناظر الطبيعية فى الغرب لدى شعرائه الكبار توحى بمعان رائعة فى وحدة الوجود وتناسقه ، وتلهم أفكارًا حية عن الزمان والمكان ، والحب والخلود ، والماضى والحاضر ، والأزل والأبد ، فالشلالات المنحدرة فى تدفق ، والبحر الممتد فى سعة وعمق ، والغاباتُ ذاتُ الشجر الملتف ، والطير المغرد ، والجبال المتوجة بالثلوج ، كل أولئك مما يلهب خيال الشاعر الأوربى ، فيقبس منها بوارق الإبداع ، ويخلع عليها من ذات نفسه ، فيراها ذوات أرواح وأصداء وأصوات ، ويتخيل لها تاريخًا حافلاً يمتلئ بالفرح والألم ، والنشوة والحسرة ، والصعود والهبوط ، والتقيد والانطلاق ... كما أن الشعر العربى يقف عند المعنى الجزئى ، فإذا وصف طائرًا أو زهرة ، جعل يترصد ألوان التشبيه ومناحيه فى الرأس والجناح والريش لدى الطائر ، وفى الكم والأريج واللون والورق لدى الزهرة ، مكتفيًا بذلك عَمَّا يفيض فيه الشاعر الأوربى من الاهتمام بالجوهر الكلى والإطار الشامل ، مظهرًا فلسفة الفكرة آنًا ، ورقة الهمس والحنين آنًا آخر ، مما يُفاجئ القارئ بإحساس جديد تمور به نفسه دون أن يرهق فكره بمختلف التشبيهات الذهنية ، والتحاسين اللفظية التى نجد كثيرًا منها فى الشعر العربى .. هذا إلى أن شعر الطبيعة فى الأدب العربى – مشرقًا وأندلسًا – لا تنفرد فيه الطبيعة بالموضوع غالبًا ، فهى تأتى فى قصيدة المدح أو الرثاء أو الغزل استطرادًا ، فالشاعر ينظر إليها معجلاً ، فَيَلُمَّ ببضعة أبيات ثم ينتقل إلى ما يريد ، فَوَصْفُ أبى تمام للربيع فى قصيدته الشهيرة :

رَقَّتْ حواشِى الدهر فهى تمرمرُ ... وغَدَا الثرى فى حَلْبَةٍ يتسكَّرُ

تزلتْ مقدمةُ المصيفِ حميدةً ... ويد الشتاء جديدة لا تُنْكَرُ

وأبيات ابن الرومى :

حَيَّتْكَ عنا شمال طاف ريقها ... بجنة نَعِمَتْ روحًا وريحانَا

هبت سحيرًا فناجَى الغصنُ صاحبه ... سِرًّا بها ، وتداعى الطير إعلانَا

كل ذلك وعشرات من أمثالها جاء فى قصائد المديح عَرَضًا ، ومثله فى الأندلس كثير من شعر ابن هانئ ، وابن حمديس ، وابن زيدون ، أما أن تكون الطبيعة ذات استقلال خاص بالقول ، فهو ما لم يظهر بكثرة كاثرة إلا عند بعض الشعراء فى البلاط الحمدانى ، كالصنوبرى ، والنامى ، وكشاجم ، والسرى الرفاء ، وهو بعد لا يتجاوز الأبيات القليلة ، فليس يصدر عن نَفَسٍ جياش متدفق ، يُرسل القولَ إرسالاً ، كما ينحدر الماء من أعلى الجبل إلى منحدر السفح ، أما الشعر الغربى فالطبيعة ذات حيز كبير مستقل ، نرى من الاهتمام بها لدى الشعراء ما يوحى بعظم تأثيرها الخالب ، حتى إن شعراء الملاحم وشعراء المسرح لا يعفون آثارهم الرائعة من الوصف الطبيعى ، ويرون فى الافتتان بالطبيعة ما يضفى على الملحمة البطولية والمسرحية التمثيلية بهجة ومتعة ، مع اتساع الشعر الغنائى لتصويرها والافتتان بجمالها كل الافتتان ! وهذا ما يطلبه الدكتور أحمد أمين فى الأدب العربى فلا يجده ، وكأن يأمل أن يرى فى أدب الأندلس ما يشير إليه ، إنْ عَزَّ أن يجد ما يشابهه ، فلم يقع على شىء ، وهذا ما دعاه إلى نقد الأندلسيين .

أما الدكتور مبارك فلا يريد أن يخلط الأدب العربى بغيره ، فإذا كان شعراء الأندلس قد أكثروا القول فى شعر الطبيعة فقد قاموا بجهدهم المشكور ، وزاحموا المشارقة ، وربما تفوقوا عليهم فى الكثرة الكمية ، وهذا وحده ما يجيز للدكتور أن يباهى بما قالوه ، وأن يعنف فى نقد الأستاذ أحمد أمين عنفًا كان الأجدر ألا يكون .

على أننا بعد ذلك نتجه إلى صميم الموضوع فنسأل : أكان شعر الطبيعة فى الأدب الأندلسى موازيًا لأخيه المشرقى فى القيمة الفنية لم يكد يزيد عنه شيئًا ، أم أنه احتذاه بدءًا ثم استطاع أن يسير فى طريق التقدم الابتكارى خطوات وئيدة ؟ وإذا فعل ذلك فإلى أى أمد سار ؟ إننا إذْ نجيب عن هذا السؤال إنما نقدم للقارئ ما يفيد :

من الخطأ الذى يقع فيه أرباب الموازنات بين الأدبين أنهم يجعلون جميع ما قاله المشارقة يقف أمام ما قاله الأندلسيون ، ونسوا بذلك شيئًا واضحًا ، هو أن عمر الأندلس الأدبى أقل بكثير من عمر المشرق ، فالأدب الجاهلى مثلاً أدب مشرقى ، وأدب صدر الإسلام وعصر بنى أُمية أدب مشرقى ، وأدب السنين الأولى لعهد بنى العباس أدب

مشرقى أيضًا ، ولكنها كلها لا تدخل فى باب الموازنة ، وذلك لأمر واضح هو أن أدب الأندلس إلى أوائل عهد بنى العباس لم يكد يولد بعد ، وعلى ذلك فهو حفيد لما تقدمه من آداب هذه العصور ، وإذا أردنا أن نقيم موازنة بينه وبين أدب مشرقى فلتكن الموازنة مع أدب حفيد مماثل ، أَمَّا الآداب السابقة فهى آباء وأجداد للأدبين معًا ، ولا يليق فى باب الموازنة العادلة أن يذهب بفخر هذا الميراث الحفيل حفيد دون حفيد ، فإذا كان لدينا من جدة متأصلة فى شعر الطبيعة جاهليًّا وأمويًّا فهى مما لا يندرج فى حساب أحد ، وإنما الذى نسأل عنه إذ ذاك : هل نمت هذه الجدة فى أدبٍ مَّا فواصلت سيرها المنتظر ، أو أن الجمود قد وقف بها دون الاطِّراد فى هذه الدائرة المحددة ؟

وإذا كان من المتعارف عليه اصطلاحيًّا - ولا مشاحة فى الاصطلاح - أن أدب الطبيعة يشمل الطبيعة الحية ، كالحيوان ، والطير ، والطبيعة الصامتة ، كالنبات ، والجبال ، والحدائق ، والغابات ، والبحار ، والسماوات - أو بعبارة أخرى يشمل ما سوى الإنسان ، مما يرتسم فى صفحة الحياة - فإننا حين نتصفح الشعر العربى نجده فى عصرى الجاهلية والإسلام قد اهتم بالطبيعة الحية أكثر من اهتمامه بها فيما بعد .. فتحدَّث الشعرُ الجاهلى حديثًا مطيلاً عن حيوانات البادية ، من ناقة ، وفرس ، وذئب ، وكلب ، وشاركه الأدب الأموى اهتمامه بحيوان البيئة وطيرها ، وإنْ قَلَّ الحديثُ عن هذه الطبيعة الحية نسبيًّا فى الأدبين الأندلسى والعباسى معًا .. ويجب أن نفرق هنا بين نوعين من الشعر فى الطبيعة الحية ، النوع الأول - وهو ما يعرف بالوصف - ذلك الذى يقف عند الأعضاء والملامح والأجزاء ، فيصورها تصويرًا جزئيًّا حسيًا ! وهو موفور كثير فى كل أدب ، حتى فى آداب عصور التدهور والانحطاط على نسبة بين الجودة والرداءة ، أما النوع الثانى - وهو الذى يبعد عن الوصف الحسى إلى الحديث عن الخواطر والشجون لدى الطير والحيوان - فقد بدأت ظواهره فى الأدبين : الجاهلى والأموى ، وكان الظن بها أن تنمو فى الأدبين : العباسى والأندلسى ، ولكنها تحجرت أو كادت فى الطبيعة الحية ، واكتفى الشعراء برسم الظواهر الحسية مما يقف عنده البصر وحده ، وهو مما عِيبَ على الأدب العربى بعامة .. والحق أن الشاعر الجاهلى كان أصدق فطرةً ، وأخلص طبيعةً من ذوى الثقافات البيانية ،

والتوليدات الذهنية فى عصور الصنعة والاحتفاء .. إنَّ الشِّنْفَرَى مثلاً يصاحب الوحش فى البيداء بروح إنسانية ، ويقول عن أصدقائه من العجماوات : «هم الأهل ، لا مستودع السر عندهم بذائع» .. ثم تأخذه الرحمة بالذئب فيتابعه حين يلتمس القوت فلا يجده ، وإذ ذاك يعوى فتخف إليه الذئاب عاديات مسعدات ، فإذا أقمن المناحة ورأين عدم جدواها فى الشبع والرىِّ لجأن إلى الصبر والاستسلام .. كم كان جميلاً من الشنفرى أن يتابع هذه المخلوقات الجائعة ، ثم يتعاطف معها فيقول :

فلما لواه القوت من حيث أَمَّهُ ... دعا فأجبته نظائر هزل
فضجَّ وضجتْ بالبراح كأنها ... وإياه نوح فوق علياء ثكل
عَوى وَعَوتْ ثم ارْعَوَى بعد وارعوتْ ... وللصبر إنْ لم يسعفِ الشجو أجمل[1]

ثم نجد هذا التعاطف يتقدم خطوات أخرى فى العصر الأموى ، إذ يركب الأعرابى ناقته فيسمعها تحن ، ولم تسر بعد كثيرًا حتى تتعب ، فيدرك أنها تعالج من الشوق ما يُعالج ، ويراها غريبة مثله ، فلا بد أن يسعد الغريب الغريب ! ثم ينقلب هذا التعاطف بين الإنسان والحيوان إلى إيثار يصدر عن محبة وإخلاص ، فيودُّ الأعرابى لو خلص قلبه من الشوق ، فيهديه إلى ناقته ليساعدها على الحنين ! والله هذا الإيثار السمح ، وهذا الشعور الرائع يجيش به بدوى فطرى فيسامى أعظم شعراء الوجدان حين يقول :

دع المطايا تنسم الجنوبَا
إن لها لَنَبَأً عجيبَا ..!
حنينها وما اشتكت لغوبَا
يشهد أن قد فارقت حبيبَا
ما حملت إلا فتى كئيبَا

---

(١) لعل الشنفرى يذكرنا بتعاطف عنترة حين يقول عن جواده :

فَازْوَرَّ من وَقْع القَنَا بَلَبَانِهِ ... وشكا إلىَّ بعبرة وتحمْحُم
لو كان يدرى ما المحاورةُ اشتكى ... ولكان لَوْ عَرفَ الكلامَ مُكلِّمى

يـــــسرُّ ممـــــا أعلنـــــتْ نـــــصيبَا
لـــــو تـــــرك الـــــشوق لنـــــا قلوبـــــَا
إذن لآثرْنَـــــــا بهـــــــن النيبـــــــَا
إن الغـــــــريبَ يســـــعدُ الغـــــــريبَا

وشاعر كالفَرَزْدَق ليست تشيع الرقة العاطفية بين ما عُرِفَ من أشعاره ، ولا فيما تُنُوقِلَ من أخباره ، بل ربما كان إلى كثافة الحس ، وهمود الشعور ، وغلظة الطبع ، أقرب من نظرائه ، ولكنه يتحدث عن الذئب مرتين ، فينبجس قلبه عن رقة لا نعرفها لديه .. إن الشاعر الذى افتخر بأنه لم يبكِ على زوجته كَجَرِيرٍ حين لحقت بالفناء ، فالمرأة أهون من أن يبكى عليها رجل :

وأهـــون مفقـــود إذا المـــوتُ نالـــه على المـــرء فى أصحـــابه من تقنـــعا

هذا الجامد الصارم يجد ذئب الصحراء دانيًا من طعامه ، فيقاسمه زاده ، ويصيح به فى مودَّة :

تَعَـــشَّ فـــإنْ عاهـــدتنى لا تخـــوننى نَكُـــنْ مثـــل مَـــنْ يـــا ذئـــبُ يـــصطحبان
وأنـــت امـــرؤٌ يـــا ذئـــب والغـــدر كنتمـــا أُخَيَّـــيْنِ كانـــا أُرْضِـــعَا بلبـــانِ
ولـــو غيـــرنا نبهـــت تلتمسُ القِـــرَى أتـــاكَ بســـهمٍ أو شـــباة ســـنانِ

ثم يتحدث عن موقف آخر مع ذئب استضافة فى مكان يعرف بالغريّيْن فيقول :

وليلـــةٍ بتنـــا بـــالغريين ضـــافَنَا علـــى الـــزاد ممـــشوقُ الـــذراعين أطلـــسُ
تَلَمَّـــسَنَا حتـــى أتانـــا ولم يَـــزَلْ لـــدن فطمتْـــه أمـــه يـــتلمسُ
ولـــو أنـــه إذْ جاءنـــا كـــان دانيًـــا لألبـــستُه لـــو أنـــه كـــان يلـــبسُ
ولكـــنْ تنحـــى جنبـــه بعـــد مـــا دنـــا فكـــان كقيـــد الـــرمح ، بـــل هـــو أَنْفَـــسُ
فقاسمتـــه نـــصفيْن بينـــى وبينـــه بقيـــة زادى والركائـــب نُعَّـــسُ
وكان ابن ليـــلى إذْ قـــرى الـــذئب داره على طـــارق الظلمـــاء لا يَتَعـــبَّسُ

هذا الانجذاب العاطفى نحو الحيوان والطير - مما يتدرج فى باب الطبيعة الحية - قد انقطع أو كاد فيما تلا العصر الأموى من عصور ، فالبُحْتُرِىُّ يتحدث عن الذئب كما تحدث الفرزدق ، ولكن لا نجد من التعاطف والرحمة ما هو جدير بشاعر كالبحترى ، بل نجد من الافتعال والتلفيق ما ينبئ عن عاطفة متحجرة سمحت له أن يقول :

طواهُ الطَّوَى حتى استمر مريره ... فما فيه إلا العَظْمُ والروحُ والجِلْدُ
سما لى وبى من شدة الجوع ما به ... ببيداء لم تعرف بها عشية رغد
فأوجزته خرقاء تحسب نصلها ... على كوكب ينقضُّ والليل مُسْوَدُ
فَخَرَّ وقد أَوْرَدْتُهُ منهلَ الرَّدَى ... على طمأٍ لو أنه عذب الوردُ
وقمتُ فجمّعت الحصَى واشتويتُه ... عليه وَلِلرَّمْضَاءِ من تحته وَقْدُ
ونلت خسيسًا منه ثم تركتُه ... وأقلعتُ عنه وهو منعفر فَرْدُ

والشريف الرَّضِىُّ - ذلك العربى العلوى الهمام - ينحو منحى البحترى فيقول عن ذئبه :

ولمَّا عَوَى والرمل بينى وبينه ... تَيَقَّنَ صَحْبِى أنه غير راجِعِ

وهكذا نفتش عن أدب الحيوان والطير فى شعر بنى العباس والأندلسيين ومن وليهم، فلا تجد غير الوصف فقط ، مما لا يستثير العواطف ، أو يكشف عن التعاطف والتآلف .. ولدينا قصائد عباسية كثيرة فى الحيوان لعشرات من الشعراء ، ولكن قصاراها أن يتجه وجهة المتنبى - شرقًا - حين قال فى أسد البدر بن عمار :

أمعفر الأسد الهزَبْر بسوْطه ... لمن ادخرتَ الصَّارِمَ المسلولا
ورد إذا نزل الجزيرة شاربًا ... ورد الفرات زئيره والنيلا
ما قوبلت عيناه إلا ظُنَّتَا ... تحت الدُّجَى نار المجوس حلولاً
يطأ الثرى مترفقًا من تيهه ... فكأنه آسٍ يجسُّ عليلاً

أو تتجه وجهة ابن حمديس بالأندلس حين يصف الأسد فيقول :

هزبـــر لـــه فـــى فيـــه نـــارٌ وشـــفرة ... كمـا يـستوى لحـم القتيـل علـى الجمرِ
ســـراجاه عينـــاه إذْ أظلـــم الـــدجى ... فإن بات يسرى باتت الوحش لا تسْرى
يصلـــصل رعـــدٌ مـــن عظـــيم زئـــيره ... ويلمـــعُ بـــرقٌ مـــن حماليقـــه الحمـــر
لـــه دَنَبٌ مســـتنبط منه ســـــوطُه ... تَـرى الأرض منه وهى مضـروبة الظهر

فمع جمال هذا الوصف الرائع لدى المتنبى وابن حمديس ، وعشرات ممن يردون موردهما فى الاهتمام بالهيكل الظاهرى دون اتساع النظرة الإنسانية وشمولها ، فإننا نرى أن شعراءنا العرب قد وقفوا عند الصورة البصرية موقفًا كان من الحسن أن يتجاوزوه ، وهذا شأنهم جميعًا - باستثناء أبى العلاء فى شعر الطبيعة الحية - شرقًا وغربًا .

على أن الحمَام قد فاز بنصيب كبير من القول ، فكل عاشق تهيج لواعجه صدحات الحمائم ، فيعبر عن شجونه مستطردًا إلى وصفها ، وأدب الحمائم أكثر من أن يحصر ، وأوضح من أن يُدَلَّ عليه ، وهو على درجة قريبة من التشابه بين المشرق والمغرب ، فإذا قال الشاعر الشرقى :

ألا يـــا حمـــام الأيـــك إلْفُـــكَ حاضِـــرٌ ... وغُـــصنُك ميَّـــاد فَفِـــيمَ تنـــوحُ ؟
أفـــق لا تـــنح مـــن غـــير شـــىء فـــإننى ... بكيـــتُ زمانًـــا والفـــؤاد صـــحيحُ
ولـــوعًا فشطـــت غـــربةً دارُ زينـــبٍ ... فهـــا أنـــا أبكى والفـــؤاد جـــــريح

قال الشاعر الأندلسى :

ألا يـــا حمـــام الأيـــكِ مالـــك باكيًـــا ... وغـــضنُك نـــضْرٌ والجنـــابُ مريـــعُ
تغـــنَ ولا تنـــشجْ فإلفُـــكَ حاضـــرٌ ... قريـــبٌ وإلْفِـــىَ غائـــبٌ وَشَـــسُوعُ[1]
وقلبُـــك خَلْـــوٌ من تبـــاريحِ لـــوعتى ... وقلبى بلوعـــات الفـــــراق صديـــعُ

(١) شسُوع : بعيد .

والاحتذاء هنا واضح سافر ، وهو مما لا يُحمد للمتأخر إذا صدر عن رغبة التقليد لا عن تجربة توجب التنفيس .. وشعر التجربة الصادقة لا يخفى ، ففيه من حرارة الانفعال ، وتوهج العاطفة ، وكمون اللوعة ما لا يخفى على البصير .. لقد كان أبو فراس الحمدانى أسيرًا فى بلاد الروم ، يبعث قصائده إلى ابن عمّه كى ينهض إلى فكاكه متوسلاً شاكيًا ، ثم طرق سمعه ترجيعُ وَرْقَاء هتوف ، تنوح دون أن تذوق من طارقات النوى ما ذاق الأمير الشاعر ! ولكنها وهى الطليقة السراح تبكى وتنحب دون المكَبَّل الأسير ، فانطلق أبو فراس يبثها الشجن ، ويخبرها عَمَّا تجهل من أمره ، ويهتف فى آهة هادئة مشجية :

أقول وقد ناحت بقربى حمامةٌ ... أيا جَارَتا لو تعلمين بحالى
معاذ الهوى ما ذِقت طارقة النوى ... ولا خطرت منك الهموم ببال
أتحملُ محزون الفؤاد قوادم ... على غصن نائى المسافة عال
أيا جارتًا ما أنصف الدهر بيننا ... تَعَالَىْ أُقاسمك الهموم تعالى
تعالى ترىْ روحًا لدىَّ ضعيفة ... تردد فى جسم يُعَذَّبُ بال
أيضحكُ مأسورٌ وتبكى طليقةٌ ... ويسكت محزون ويندب سالى ؟
لقد كنتُ أَوْلَى منكِ بالدمع مقلة ... ولكنَّ دمعى فى الحوادث غالى

هذا أبو فراس بالمشرق .. أما المعتمد بن عباد بالأندلس فأشدّ منه لوعة ، وأعظم مأساة ، لقد حبسه يوسف بن تاشفين بالعدوة ، ولم يرحم ملكه الضائع ، ومده السالف ، وبلاءه المشكور فى موقعة الزلافة حين تلاقى الجمعان ، بل زاد فقيّد يديه وقدميه ، وأرهق زوجته وأطفاله بما يقصم الظهور بعد نعيم وارفٍ ، وعز حافل ، ومجد سعيد ! ولم يجد الملك الأسير غير الشعر يبثه حنينه ويودعه شكواه . وقد عبرتْ به أسرابُ القطا طليقةً غير مقيدة ، فتمنى أن يكون مثلها يسرح فى فضاء الله دون إرهاق ، ولحقه شعورُه الشاعر ، فدعا لها بالصّيانة والعصمة ، ولأفراخها بالماء والظل ، فإن أفراخه لا يجدن منهما شيئًا ! ونفّس عن صدره بهذه الزفرة ذات اللهب الحبيس :

بكيتُ إلى سرب القطا إذْ مَرَرْنَ بى ... سوارحَ لا سجنٌ يعوق ولا كبلُ
ولم يَك واللهُ المُعيدُ حسادةً ... ولكنْ حنينًا إنَّ شكلى لها شكل
فأسرح لا شملى صريع ولا الحشا ... وجيع ولا عيناى يبكيهما ثكل
هنيئًا لها إن لمْ يفرقْ جميعها ... ولا ذاق منها البعد عن أهلها أهل
وأن لم تبتْ مثلى تطير قلوبها ... إذا اهتز باب السجن أو صلصل القفل
لَنَفْسِى إلى لُقْيَا الحمام تشوُّفٌ ... سواى يحب العيش فى ساقه حجلُ
ألا عصم الله القطا فى فراخها ... فإنَّ فراخى خانها الماء والظل !

هذه التجربة الصادقة لا يمكن أن تكون تقليدًا لأبى فراس ، وإنما هى شعور إنسانى صادق يهتز به أديب حَسَّاس ، وهى بعدُ نموذج جيد لما نفتقده من أواصر التعاطف بين الإنسان والطائر فى أدبنا العربى ، وأى تعاطف حىّ أبلغ من قول الملك الأسير :

ألا عصم الله القطا فى فراخها ... فإن فراخى خانها الماء والظل !

وبعد فلقد طال تطوافنا حول أدب الطبيعة الحية فى المشرق والأندلس ، وانتهى بنا المسير دون أن نجد بهما ما يصلح أن يكون نماءً طبيعيًّا لبذرة الشعر الجاهلى ذات التعاطف الإنسانى الشفيق ، وسنبحث الآن عن أدب الطبيعة الصامتة فى الأندلس لنرى مداه فى الطرافة والتجديد .

قلنا فى صدر هذا البحث إننا نتساءل عَمَّا إذا كان شعر الطبيعة فى الأدب الأندلسى موازيًا لأخيه المشرقى فى القيمة الفنية ، لم يكد يزيد عنه شيئًا أم أنه احتذاه بدءًا ثم استطاع أن يسير فى طريق التقدم الابتكارى خطوات وئيدة ، وإذا فعل ذلك فإلى أى مدى سار ؟ وهذا السؤال لا يزال يتطلب الإجابة فيما يختص بالطبيعة الصامتة ، وهى المتبادرة إلى الذهن بداهة حين نتحدث عن شعر الطبيعة بالأندلس ، فبماذا نجيب ؟ ...

إذا كان الأدب الأندلسى بعامة قد أخذ يستقل ويتميز ، ويدعم كيانه الذاتى منذ عهد الخلافة فى زمن الناصر ، فإننا نجعل من أدب هذه الفترة وما تلاها من العصور ، مجال الحديث عن شعر الطبيعة ، فإذا أردنا أن نلتفت إلى المشرق إذ ذاك فإنا نجده أيضًا قد

استقل بأخصب عهود الطبيعة فى تراثه ، إذ إن البلاط الحمدانى بحلب قد جمع حوله من عشاق الطبيعة نفرًا غير قليل ، وكأنى بهؤلاء ومن جاء من بعدهم رأوا المتنبى يسد عليهم منافذ القول فى المديح ، وينهض صرحه الشامخ أمام سيف الدولة ، فيكاد يحجب عنه سواه على كثرتهم الزائدة ، وجهدهم الحفيل ، وإذ ذاك وجدوا فى الطبيعة عزاءً وسلوى ، فانطلقوا يصفون هذه البيئة الترفة الفاخرة ، وقد برع منهم من حمل اللواء ، وتقدم الموكب ، وهو شاعر الطبيعة الوصاف أبو بكر الصنوبرى فتابعه وزاحمه فى اتجاهه السرى الرفاء ، وكشاجم ، والخالديان ، والوَأْواء الدمشقى ، والزاهى ، والناشئ ، وعبد الحسن الصورى ، وأبو الفرج الببغاء ، وابنَا ورْقاء ، والخباز البلدى ، والواسانى ، وغيرهم ممن تحدثت عنهم يتيمة الدهر بإفاضة وإعجاب .. وكان الشعر الحمدانى فى هذا العصر الذهبى يسطر صفحة ذهبية للأدب العربى فى القرن الرابع ، ويُحدث تأثيره المدوى فى شتى الأمصار العربية ، إذ كانت دواوين شعراء بنى حمدان تصل إلى الأندلس ومصر وفارس وبغداد ، فيعكف عليها الورَّاقون نسخًا ، لتباع بمغريات الأثمان .. وطالما عقدت مجالس الأدب ببغداد فى دار الوزير المهلبى ، ومحافل الشعر بأصبهان فى حضرة الصاحب بن عباد ، وكلها تدور حول شعر بنى حمدان .

تقدم الصنوبرى شعراء عصره فى الهيام بمحاسن الطبيعة ، فأكثر الحديث عنها إكثارًا لا يقف عند حد ، حتى لقد قَسَّمَ القول فيها إلى أبواب متميزة ، فباب للروضيات يتحدث عن سحر الحدائق والبساتين ، وباب للزهريات يصف الأقحوان ، والسوسن ، والشفيق ، والبهار ، والآذريون ، والنرْجس ، والْخَيْرىّ ، والنسرين ، والورد ، والنيلوفر ، والياسمين ، ويقيم المناظرات بين نوع ونوع ، ويفضل صنفًا على صنف ، وقد تقدم ابن الرومى إلى نحو ضئيل من ذلك ، ولكنه على يدى الصنوبرى وأضرابه قد أصبح بدعة العصر ، وأسلوب الوصف ، حتى عُرِفَ بعض الشعراء بالتعصب لنوع معين من الأزهار ، يبدئ فى أمداحه ويعيد ، كما عُرِفَ الوَأْوَاء بحب النرجس ، والسرى الرفاء بحب الورد الأحمر ، واشتهر أبو بكر الخالدى بوصف شقائق النعمان.. هذا فى الزهريات ، أما الأثمار فما أكثر الحديث عن النارنج ، والليمون ، والبطيخ ، والتين الأسود ، والتفاح ،

والشمام، وأما المائيات فما أكثر الحديث عن السحاب، والأنهار ، والسواقى ، والبِرَك ، والأسماك ، والثلجيات ، وأما الفصول فقد ذخر الشعر فى الربيع ، والصيف، والشتاء، والخريف .. هذه الأشعار الطبيعية جميعها قد انتقلت إلى الأندلس وأحدثت أثرها النفاذ .

ونحن حين نقرأ ما لدينا من هذه الأشعار ، نجدها تتشابه وتتقارب ، فهى تقوم على الصورة الحسية ، ويقلُّ بها ما سميناه بالتعاطف الوجدانى ، ولا تكاد تجد فروقًا واضحة بين شاعر وشاعر ، فالصنوبرى – على زعامته – قريب مختلط بالسرى الرفاء وكشاجم فى منحاه وطبيعة جوه وتقيد انطلاقه .. ولا أدرى لماذا أضيق بأشعار الطبيعة الوصفية التى ألمس فيها إصرار الشعراء على أن تكون أشعارهم نماذجَ للتطبيقات البلاغية والبديعة ؟ فهى معرض حسن للتشبيه ، والاستعارة ، والطباق ، والجناس ، ولكن الصورة الناهضة خلف الاستعارة والتشبيه باهتة الملامح ، ضائعة القسمات .

لقد قال الصنوبرى كثيرًا فى الأنهار ، واختص نهو (قويق) بأكثر من عشر قصائد، ولكن إحداها لا تبلغ من نفسى – على كثرة صورها الحسية – مبلغ البيت الأخير من قوله فى هذا النهر ، وكان يعمر بالماء شتاء ويجف صيفًا ، فتصيح فيه الضفادع :

قويقُ إذا شمّ ريح الشتاء ... أظهَر تيهًا وكبرًا عجيبَا
وإن أقبل الصيف أبصرته ... ذليلاً حقيرًا حزينًا كئيبَا
إذا ما الضفادعُ ناديْنَهُ ... قويقُ قويقُ أَبَى أن يجيبَا

وأبو العباس النامى أطال القول فى السحاب ، وجرى مع شعراء بنى حمدان فى أوصاف التدفق والانصباب ، وبكاء المزن ، وضحك الرياض ، ولكنه أبدع حقًّا حين قال :

خليلىّ هل للمزن مقلة عاشق ... أم النار فى أحشائها وهى لا تدرى
أشارت إلى أرض العراق فأصبحت ... وكاللؤلؤ المبتول أدمعها تجرى
سحاب حكت ثكلى أُصيبت بواحدٍ ... فعاجت له نحو الرياض على قبر
فوشى بلا رقم ، ونقش بلا يد ... ودمع بلا عين ، وضحك بلا ثغر

أبدع لأنه تعدى الصورة البصرية إلى استكناه السحابة ، ومحاولة استبطانها ، وخَلَع الحياة عليها ، وهذا جيد طريف .

انتقلت هذه الثروة من أدب الطبيعة إلى الأندلس ، وأدباء الأندلس مولعون بعدُ بكل شرقى شائق ، وطبيعة بلادهم الزاهرة الناضرة مما يوجب الاحتفاء بهذا اللون واقتفاءه ، بل إن ابن خفاجة - وهو أكبر شعراء الطبيعة بالأندلس - كان يُسمى بالصنوبرى تشبيهًا له بأبى بكر ، وكان فخورًا بذلك ، وقد عكف على ديوانه واقتفاه ، ولا نريد أن نقول إن الشاعر الأندلسى كان مقلدًا يقتصر على المحاكاة ، ولكن نريد أن نقول إنه وجد عند الصنوبرى ما ليس لدى غيره مما يوافق مزاجه ، ويروى أحاسيسه ، فتشرب روحه ، ثم انطلق إلى أجواء الشعر ليوقع على قيثار جديد .

تقرأ شعر الطبيعة فى الأندلس فتأخذ عينك روضة فسيحة ذات أزهار متشابهة ، وثمار متقاربة ، وأغصان مورقة ، لا تطالعك غالبًا بما لا تعهد ، ولكنها تنقل إليك صورة تعرفها ، ومع ذلك تهش لها ، ، وتقف عندها ، وترحب بها . وبين هذه المشتبهات المتفقات ترى على أبعاد متفاوتة شيئًا طريفًا ، كأنك تراه لأول مرة ، فتسرع خفيفًا إليه ، وتطيل عنده الوقوف .

ترى زهرًا متشابهًا يعجبك بروائه ، وتراه لا يَقِلُّ عن نظائره ، فهو مما تعهد وتعرف ، ويمثله قول ابن خفاجه :

وكمامةٍ صدر الصباح قناعها ... عن صفحة تندى من الأزهارِ
فى أبطح رضعت ثغور أقاحه ... أخلاف كل غمامة مدرارِ
نشرت بحجر الأرض فيه يد الصبا ... درر الندى ودراهم النوَّارِ
فحللتُ حيث الماء صفحة ضاحك ... جذل وحيث الشط بدء عذارِ
والريح تنفض بكرةً لم الرُّبَا ... والطل ينضح أوجه الأشجارِ
متقسم الألحاظ بين محاسن ... من رِدْفِ رابيةٍ وخصر قرارِ
وأراكةٍ سجعَ الهديلُ بفرعها ... والصبح يسفر عن جبين نهارِ
هزتْ له أعطافها ولربما ... خلعت عليه ملاءة النوَّارِ

الصور كثيرة ، والنَّظْمُ قوى متماسك ، ولكن الشاعر صانع ماهر ، لم يعطك من عنده الكثير ، وإنما قدم لك نموذجًا متقاربًا مما نعلم ، ولنبعد عنه قليلاً إلى ابن سهل لنسمعه يقول :

انظر إلى لون الأصيلِ كأنه ... لا شك لون مودع لفراقِ
والشمسُ تنظر نحوه مصفَّرة ... قد خمشت خَدًّا من الإشفاقِ
لاقَت بحمرتها الخليج فَألْفَا ... خجل الصبا ومدامع العشاقِ

فلون الأصيل يوحى بأنه مفارق مودع ، والشمس عاشقة حزينة ، تخمش خدها من الإشفاق ، ثم تسقط فى الماء لترى فى شفقها الدامى خجل الصبا بين مدامع العاشقين ! تصوير يقترب من الحياة قليلاً ، ويكاد ينفخ الروح فيما يصف ، وإنه لجيد رائع لو لم يكن سبقه ابن الرومى بقوله المبدع :

وقد رنّقت شمس الأصيل ونفّضت ... على الأفق الغربى ورْسًا مزعزعَا
وودّعت الدنيا لتقضى نحبها ... وشول باقى عمرها فتشعشَا
ولاحظت النوار وهى مريضة ... وقد وضعت خَدًّا إلى الأرض أضرعَا
كما لاحظتْ عُوَّادُهُ عينَ مدنفٍ ... تَوَجَّعَ من أَوْصَابِهِ ما توجعَا
وظلت عيونُ الروضِ تخضَلُّ بالندَى ... كما اغرورقتْ عَينَ الشجى لتدمعَا
يراعينها صورًا إليها روانيا ... ويلحظن ألحاظًا من الشجو خُشَّعَا
وبيّن إغضاء الفراق عليهما ... كأنهما خِلاًّ صفاءٍ تودعَا !

وإذا كان فيما تقدم لابن خفاجة وابن سهل ما يذكر بالمتعارف المعهود ، فلنبتعد قليلاً عَمَّا نعرف ، ولنمض وئيدًا إلى الطريف الجديد .

نرى الآن فى الآداب العالية الرفيعة أن النسيب العاطفى لا يكادُ يذكر إلا من خلال الطبيعة ، لأنها الإطار البديع لصور اللقاء والسمر ، فعلى ضفاف الأنهار ، وتحت مشتبك الأغصان ، وفى الليلة القمراء ، ومع النسيم الهادئ الوئيد يحلو تناجى الأرواح ، وتهامس الأفئدة ، وامتزاج النفوس ، ومظاهر الطبيعة هى البريد الأمين الذى ينقل عن

المحب لَواعِجَه وأحاسيسه ، فللرشاش المتقاطر ، وللشفق الوردى ، والدَّرُّ المتجمد فى أعالى الغصون ، ولنفحات الزهور واختلاج المياه رموز عاطفية تكشف عن معانٍ حبيسة فى نفوس العشاق ، وما أفصحها من رموز تُشافه الإحساس ، وتنقل المعانى بدون حروف وكلمات ! وقد وجدنا لدى ابن زيدون - وهو العاطفى الصادق اللوعة ، الجياش الحنين - قصيدة فى وصف الطبيعة من خلال نوازعه وأشجانه ، تقرب كثيرًا من الأدب العالمى فى عصرنا الراهن وما سبقه من عهود الابتداع والتجديد ، وهى خطوةٌ بديعة فى أدب الطبيعة العربى ولعشاق الأدب الأندلسى أن يعتبروها مظهرًا من مظاهر التجديد العاطفى المصور ، وقد اعتبرها بعض النقاد دليلَ حيوية ابن زيدون ومظهر ارتقائه الفكرى بين معاصريه ، فهو يقول موجهًا حديثه لِولاَّدَةَ .

إنِّى ذَكَرْتُكِ بالزهراءِ مشتاقَا ... والأُفق طلقٌ وَمَرْأَى الأرضِ قد رَاقَا

وللنسيم اعتلالٌ فى أصائِلِهِ ... كأنه رَقَّ لى فاعتلَّ إشفاقَا

والروض عن مائه الفضىّ مبتسمٌ ... كما شقت عن اللبَّات أطواقَا

يوم كأيام لَذَاتٍ لنا انصرمتْ ... بتْنا لها حين نام الدهر سُرَّاقَا

نلهو بما يستميل العينِ من زهر ... جال الندى فيه حتى مال أعناقَا

كأن أعينه إذ عاينتْ أَرقِى ... بكتْ لِمَا بى فجال الدمع رقراقَا

وَرْدٌ تألق فى ضَاحى منابتِهِ ... فازداد منه الضحى فى العين إشراقَا

سرى يُنافحه نَيْلُوفَرٌ عَبِقٌ ... وَسْنَانُ نَبَّهَ منه الصبحُ أحْداقَا

كُلٌّ يهيج لنا ذكرى تشوقنا ... إليكِ لم يعد عنها الصدر أن ضاقَا

لا سَكَّنَ الله قلبًا عَنَّ ذِكركُمو ... فلم يطرْ بجناح الشوق خَفَّاقَا

لو شاء حَمْلى نسيمُ الصبح حين سَرَى ... وافاكُمو بِفَتًى أضناه ما لاقَا

لو كان وفَّى المُنّى فى جمعنا بكُمو ... لكان من أكرم الأيام أخلاقَا

كان النَّجارى بمحض الوردِّ من زمنٍ ... ميدان أُنسٍ جرينا فيه أطلاقَا

فالآن أحمدُ ما كنا لِعَهْدِكُمو ... سلوتُمُ وبقينا نحن عُشَّاقَا !

فهذه الصرخة اللهيفة قد ارتفعت على جناح الطبيعة إلى أُفق وضىء ، إذ يتضاءل جوارها أكثر ما نعهد من الوصف البصرى الذى يقف عند الجزئيات دون أن يفرغها فى روح كُلِّىٍّ عام ، وهى شبيهة بما نجده لدى شيلى ، وتينسون ، وودلر ، من كبار شعراء الإنجليز ، بل إنها لتذكرنا بمثل قول شيلى : «إنّ رَجْعَ الألحان بعد خُفوت الصوت يبقى مردّدًا فى الأفئدة . ولنشر البنفسج بعد موته طيبٌ فى الأُنوف ، وأوراقُ الورد بعد ذبولها تنثُر على فراش الحبيب ، وهكذا ذكرياتُك تظل بعد ذهابك ماثلة ! » .. تمامًا والله كما خلدت ذكريات ولاَّدة فى الزهراء ينفح بها النسيم فى الروض المبتسم عن مائه الفضى ، ويعبر عنها الندى الجائل فى أحداق الزهر حتى مالت منه الأعناق ، والورد الأبيض المتفتح فى الضحى تفتحًا زاد ضوء النهار إشراقًا أى أشراق !

ولا أدرى لماذا تُذكرنى هذه القصيدة الفريدة بأُختٍ لها قالها ابن خفاجة شاعر الطبيعة بالأندلس ، والقصيدتَان لَيْسَتَا فى موضوعٍ واحد حتى يجوز لى أن أعقد الشبه بينهما بهذه السهولة ، ولكن اختلاف الموضوع لم يمنع اتفاق الإطار ، والإطار هاهنا هو الطبيعة المفتان ، فقد نزل ابن خفاجة أَيْكةً فناءً ، فذكرتْهُ عهده بالأُنس مع حبيبةٍ فقيدة ودَّعَتِ الحياة ! وقد هاجت الذكرى شجونه فبكى ! وجعل النسيم يراوحه فيتنشّقه متحسرًا ، ولكنه لا يجد العبق الذى كان يعهده مع حبيبته ، وقَطَعَ الشاعر يومَه بالأيكة ، فلما همتِ الشمس بالمغيب وعلتْ وجه النهار كآبة كابية تَذَكَّرَ مغيب حبيبته بمغيب الشمس ، فسارعَ إلى قبرها باكيًا ! بالله إن الطبيعة هنا ذات روح غير معهود فى أكثر ما نظم شاعرها الكبير ، فالأيكةُ والريحُ والأرجُ ومغيب الشمس ، كل ذلك ممتزجٌ بعاطفة أُخرى تهزّ كيان الشاعر وتقودُه قسرًا إلى الظلام ، وهناكَ يصرخ صرخته اليائسة ويتساءل عن اللقاء الموعود : متى ، وأين بعد أن صدعت الشمل أيدى الحوادث ؟! إنه يقول :

ألا أذكرْتنى العَهْد بالأُنس أيكة ... فأذكرتُها نوحَ الحمامِ المطوقِ
وأكببت أبكى بين وَجْدٍ أناخَ بى ... حديث وعهد للشيبة مخلقِ
وأنشقُ أنفاس الرياح تعلّلا ... فأعدُم فيها طيب ذاك التَنَشّقِ
ولما علْت وجه النهار كآبةٌ ... ودارتْ به للشمس نظرة مشفقِ

عطفتُ عّلى الأجداثُ أجهشُ تارةً ... وألثم طَوْرًا تربها فى تشوُّقَ
وقلتُ لِمُغْفٍ لا يهبُّ من الكَرى ... وقد بِتُّ من وجدٍ بليلٍ مُؤَرِّقِ
لقد صَدَّعَتْ أيدى الحوادث شَمْلَنَا ... فهلْ من تلاقٍ بعدَ هذا التفرُّقِ ؟
وإن تكُ لِلْخِلَّيْنِ ثَمَّ التِقَاءَةٌ ... فياليتَ شعرى أين أوْ كيف نلتقى ؟

بعض الناس لا يعتبر هذه القطعة الفذة من شعر الطبيعة ، وربما فضّل عليها قصيدة كقصيدة ابن خفاجة :

لله نهرٌ سال فى البطحاء ... أشهَى ورودًا من لَمَى الحسناءِ !
متعطف مثل السوار كأنّه ... والزهر يكنفه مجرّ سماء

ولكن الذين يعلمون أن الطبيعة ملهم مؤثر ، ومذكر يقظ بشجون الأمس ، وسوالف العهد يعرفون كم كان الشاعر موفقًا فى استلهامها ، وأظنه نظم هذه الأبيات فى سهولة متيسرة ، حيث لم تجْبره على انتزاع الصور البيانية من تشبيه واستعارة ليثقل بها حديثه – كعهدنا به – وإنما انطلق مع طبعه فى غفوةٍ من سيطرة التصوير الحسى لينقل عن خاطره بدون تكلف .. لقد كان ابن خفاجة مغرمًا بالطبيعة حقًّا ولكنه مع ذلك كان مغرمًا بأن يقال إنه شاعر الطبيعة الأندلسى ، فكان يُكثر متعمدًا عن شعر الطبيعة دون موجب مُلح .. مات بعض أصدقائه فرثاه بقوله :

فى كل نادٍ منكَ روضُ ثناء ... وبكلِّ عين منكَ جدولُ ماء
ولكل شخصٍ هِزَّةُ الغصنِ النّدِى ... غب البكاء ورنة المكّاء

وهذا تلفيقٌ ذهنى مفتعل ما كان أغنى ابن خفاجة عن نَسجه لو لمْ يعلق بنفسه أنه شاعر الطبيعة ، فلابدّ أن يتحدث عنها فى الرثاء ، معَ أن عاشق الطبيعة يتحدث عنها عفوًا دون سبق الإصرار ، يتحدثُ عنها فى كل غرضٍ : من نسيبٍ ، ورثاء ، ووصف ، وعتاب ، وحكمةٍ ، فترى روحها تملأ الأبيات ، وتطالعك شفافة رفافةً من خلال الفكر والتصاوير ، أما أن يتعمدها الشاعر تعمدًا فى الرثاء فهذا ما يوحى أنها الأصل ، وأن الميت لا يساوى عند صاحبه شيئًا ! ولكن المجال مجالُ إظهار عبقرية شعرية يتوق ابن

خفاجة أن يتحدث بها الناس .. كانت جريدة الأهرام تنشر - أثناء الحرب العالمية الثانية وما قبلها بقليل - مقطوعات فى وصف الطبيعة بالريف المصرى بإمضاء شاعر البرارى ، وهو - رحمه الله - صديق مخلص ، وقد زُرته مصادفةً يوم وفاة جبرائيل تقلا صاحب الأهرام، فقال لى إنه سيرثى الفقيد ولكنْ بأسلوبه الخاص ! فاستفسرتُ عن مُرادِه ، فقال لقد عهدنى قراء الأهرام أكتب عن الورد والياسمين والنّهر ، فلابد أن يكون رثائى كذلك، وسترى براعتى ! هكذا قال ، ثم نشرت الأهرام بعد ذلك من رثائه ما لا يخرج عن قوله إنّ الندى قد انقطع فمال الياسمينُ إلى الأرض ليعزيها ! .. ولو كانت الأبيات لدىّ لذكرتها ، ولكنى تذكرتها حين قرأت أبيات ابن خفاجة فى رثاء صديقه ، لأن المنزع واحد بين الرجلين - على اختلاف الزمان والمكان .

وسننصف ابن خفاجة إنصافًا يرتفعُ به عن شعراء الطبيعة لعهده حين نذكر حديثه عن القمر والجبل ، فقد كان إذ ذاك شاعر الطبيعة بحقّ ، إنه لم ينظرْ إلى القمر فى اكتماله فيراه قُرصًا من لُجَيْنٍ[1] ، ولم يتذكر طفولته وهو هلال بعدُ ، فيجدّه زورقًا من فضةٍ قد أثقلته حمولةٌ من عنبر ، ولم ير شحوبه قبلَ المحاق فيراه حسناءَ مريضةً طال عليها الهجر كما نسمعُ من بعض الشعراء ، ولكنه يصيخ إلى نجواه ، ويتمنّى أن يُحادثه فى سمائه عن شجونه وآلامه ! ويقول إنه لو تحدث لحازَ الجمالين مِنْ خُبر ومن خبر ، وإن سَكَتَ فإنه صاحِبُ الصمتِ البليغ الواعظ ، وإنْ بكَى فعن شجو يفجّر عين الماء بالحجر ! استلهامٌ بديع حقًّا ، ومحاولةٌ شاعريّة لفهم هذا الكوكب المتألق ، واستبطانٌ عميق لمشاعره ، ونبش حصيف عن خوافيه يفصح عنه قول الشاعر :

لقد أَصَخْتُ إلى نجواكَ من قمرٍ ... وبتّ أدلج بين الوعى والنظرِ
لا أجتلى مُلحًا حتى أعى ملحا ... عدْلاً من الحكم بين السمع والبصر
وقد ملأتْ سوادَ العين مِنْ وضَحٍ ... فَقَرَّطَ السمعَ قُرْطُ الأُنس من سمرِ
فلو جمعَت إلى حُسْنٍ مُحاورةً ... حُزْتَ الجمالين من خُبر ومن خَبر

---

(١) اللُّجَيْن : الفِضَّة .

وإن صَـمَتَّ ففـى مـرآلُ لى عظـة ... قـد أفـصحت لى عنهـا ألْسُنُ الـصبر
تمـرّ مـن نـاقصٍ طـورًا ومكتمـلٍ ... طـورًا ومـن مرتـقٍ طـورًا ومُنحـدرِ
والنـاس مـن مُعْـرِضٍ يلـهو وملتفـتٍ ... يَرعـى ومـن ذاهِـلٍ ينْـسى وَمُـدَّكِرِ
تلـهُو بـساحات أقـوام تحـدّثنا ... وقـد قَـضَوْا فمـضوا آنًـا علـى الأثـرِ
فـإن بكيتُ وقـدْ يبكى الخلـيل فعـنْ ... شجـوٍ يفجِّـرُ عـينَ المـاء فى الحجـر !

هذه نفثة شاعر طال عهده ، بالطبيعة ومارس القول فى أفانينها المختلفة ، مقلِّدًا تارة ومبتكرًا تارة أخرى حتى استطاعَ بعد لأْيٍ أن ينفذ إلى اللباب من جوهر الأشياء ، وأن يرىَ فى المظاهر الخارجية دلائلَ سافرة عَمَّا يُستكن تحتَها من معانٍ ورموز .. وربما كان ابن خفاجة على استعدادٍ أن يُبدع فى هذا المجال لو رأى مِن ناقدى عصره من يشدّ على يديه ويهنئه بمنهجه الجديد ، ولكنّ طبيعة الجو الأدبى إذْ ذاك لم تكنْ تسمح بوجود هذا الناقد الحصيف ، عَلى أن بواعث الاستبطان كانتْ لدى الشاعر فى وقتٍ مَّا من أوقات حياته أقوى وأعمق من أن يتشاغل عنها بالأوصاف الحسية دون تأمل واستشفاف ، فقد وقف ابن خفاجة أمام الجبل مرّتين ، فكشَف له فى الأولى عن بعض سِرِّه حين قال عنه فى إيجاز :

وصـهوةِ عـزمٍ قـد تمطيـتُ والـدُّجَى ... مُكِـبٌّ كـأن الـصّبْحَ فـى صـدره سِـرُّ
وأشـرف طمَّـاح الذؤابـةِ شـامخ ... تَمنْطَـقَ بـالجوزاء لـيلاً لـه خـصرُ
وَقـورٌ علـى مَـرِّ الليـالى كأنمـا ... يـصيخُ إلى نجـوٍ وفـى أُذْنِـهِ وَقْـرُ
تمهَّـدَ منـه كـلّ ركـنٍ ركانـةً ... فَقَطَّـبَ إطراقًـا وَقَـدْ ضَـحِكَ البـدرُ
ولاذَ بـه نَـسْرُ الـسماءُ كأنمـا ... يحـنُّ إلى وَكْـرٍ بـه ذلـك النـسرُ
فلـمْ أَدْرِ مِـنْ صَمْتٍ لـه وسكينـةٍ ... أَكَبَـرَهُ سِـنٌّ وَقَّـرت منه أم كِبـرُ

أما الوقفة الثانية فلا نرىَ من شعراء العربية إلى الآن من حاولَ أن يأتى بإبداعها البليغ ، فقد استطاعَ ابنُ خفاجة أن يتسمَّعَ صوتَ الجبل عن رهافةِ أُذن ولطافةِ حسّ ، فحدّثه الطود باكيًا متأثرًا ، ذاكرًا تاريخه الحافل مذ كان ملجأً لقاتل ، أو موطنًا لناسكٍ

عابد ، وقد باتَ فيه المدلجون بالليل ، واستظلّ بجانبه المقيلون بالنهار ، فألفهم وألفوه ، واستطَاب مقامهم واستطابوا ، فما خَفْقُ أيكِه الآن غير أضلعٍ راجفةٍ ، وما نَوْحُ حمائمه غير صرخةِ نادبٍ يبكى فراق أحِبَّتِهِ ، فإلى متى يبقَى ليستقبل حبيبًا ثم يودّعه بعد حين ؟ وإلى متى يبقى ليرعى الكواكب ، فَمِنْ طالعٍ أُخْرَى الليالى وغارِبِ ؟! لقد نقل الشاعر حديثَ الجبل فسَحَر الناس وأدهشهم حين قال :

وأرعَـــن طمَّـــاحِ الذؤابـــة بـــاذخٍ ... يُطـــاولُ أَعْنَـــاقَ الـــسماءِ بقـــاربِ
يَـسُدُّ مهـبَّ الـريح عـن كـل وجهـةٍ ... ويـــزحم لـــيلاً شُـــهْبه بالمناكـــبِ
وقـــور علـــى ظَهْـــرِ الفَـــلاَةِ كأنـــه ... طـوالَ الليـالى مُفكـر فـى العواقـب
يلـوث عليـه الغـيمُ سُـود عمـائم ... لهـا مـن وميض البرق حُمْـرُ ذوائـبِ
أَصَـخْتُ إليـه وهـو أخـرسُ صـامتٌ ... فَحَـدَّثنِي ليـلُ الـسَّرَى بالعجائـبِ
وقـال ألاَكَـمْ كنـتُ ملجـأ قاتـلٍ ... ومـــوطنُ أوَّاه تبتَّـــلَ تائـــبِ
وكـمْ مَـرَّ بـى مـن مُـدْلج وَمُـؤِّوبٍ ... وَقَـالَ بظلِّـى مـن مَطـىِّ وراكـبِ
ولا طَـمَ مـن نكْـبِ الريـاح معـاطفى ... وزاحـمَ مـن خـضر البحـارِ غـواربِي
فمـا كـان إلا أن طَـوتْهُمُ يـدُ الـرَّدَى ... وطـارتْ بهـم ريـحُ النَـوى والنوائـبِ
فمـا خَفْـقُ أيكـى غـير رَجْفَـةِ أَضْـلُعٍ ... ولا نَـوْحُ وِرْقِـى غـير صَـرْخةِ نـادبِ
ومـا غَـيَّضَ الـسُّلْوَانُ دَمْعِـى وإنمـا ... نزفـتُ دمـوعى فـى فِـراق الـصَّوَاحِبِ
فحتّـى متـى أرعـى الكواكـبَ سـاهرًا ... فمـن طـالعٍ أخـرى الليـالى وغـاربِ
فَرُحْمَـاكَ يـا مـولاى دعـوةَ ضـارعٍ ... يمـــدُّ إلى نعمـــاك راحـــةَ راغـــبِ
فأسْـمَعنَى مِـنْ وَعْظِـه كُـلّ عـبرةٍ ... يُترجمهـا عنـه لـسانُ التجـاربِ
فَسلَّى بمـا أَبْكَـى وسَـرَّى بمـا شـجَا ... وكـانَ على عهـد السُّرَى خَيْـرَ صـاحِبِ
وقلـتُ وقـد نكّبـتُ عنـه لطيّـة ... ســـلامٌ ، فإنَّا مـن مُقِيـمٍ وذاهِبِ !

تُعدّ هذه القصيدة ذروة اكتمالِ شعرِ الطبيعة فى الأندلس ، وقد بلغ التشخيص فيها مبلغًا لا نجده إلا عند كبار الشعراء فى الشرق والغرب ، ولو ذهَب جميعُ ما قال

ابن خفاجة ، وبقيتْ وحدها لكانت معجزةَ إبداعه ودليل تفوّقه ، بل ربما ظننا أن جميع شعره من هذا الطراز ، وقد وُجد من يقول إن ابن خفاجة قد استلهم قول المجنون فى جبل «التَّوْبَاد» .

وأجهشتُ للتوباد حين رأيتُهُ ... وكَبَّر للرحمن حين رآنى

فقلتُ له قد كان حولَك حِيرَةٌ ... وعهدى بذاك الصّرم منذ زمانِ

فقال مَضَوْا واستودعونى زمانهم ... ومن ذا الذى يبقى على الحدَثَانِ؟[1]

وهذا بعيد ، لأن قولَ المجنون خطرة عابرة ، لو وقفَ عندها ابن خفاجة ما بلغ هذا النفاذ ، أما قصيدة الجبل فَنَسَقٌ شعرى متكامل ، ذو شعاب وأفانين .

ولو كان المجنون – على سبيل الاحتمال – مُوحيًا مُوَجِّهًا ، لكان لابن خفاجة فضلٌ أثير أن يكونَ موضع هذا الإيحاء ، وقد عبَرت القرون خلف المجنون ، وتوالى عشرات الشعراء فى العربية شرقًا ومَغْرِبًا دون أن يبدع أحدهم فى وصف الجبل ما أبدع ابن خفاجة فيأتى بهذا البيان .

هل لنا أن نقول الآن : إن شعر الطبيعة بالأندلس قد خطا نحو التجديد خطوةً أولى مع ابن زيدون ، وخطوةً ثانية مع ابن خفاجة ، فأتحف الأدبَ العربى ببعض الطريف من الجديد ؟!

★★★

(١) الْحَدَثَانِ : الليل والنهار .. وحَدَثَانُ الدَّهْر : نوائبه وحوادثه .